الخطاب الهَزْليّ في كتاب (البخلاء) للجاحظ

(دراسة نقديّة تحليليّة)

طالبة الماجستير: مها الهنداوي كلية الآداب – جامعة البعث

اشراف الدكتورة: نوال الأبرش + د. هلا العلي

ملخّص البحث :

يدرس البحث الخطاب الهَزْليَّ بوصفه منهجاً أدبيّاً في كتاب (البخلاء) للجاحظ ، مبيّناً أهميّة الخطاب الهَزليّ وكيف تحوّل إلى منهجٍ في التأليف ، على الرغم من وجود بوادر هذا الخطاب قبل القرن الثالث الهجري؛ فالهَزل الذي يتعالق دلاليّاً مع مصطلحات عِدّة:(كالفكاهة والسخرية والنادرة والطُّرفة والنُّكتة) عُرف منذ العصر الجاهلي، لكنَّ اتخاذه منهجاً في التأليف لم يظهر إلا في القرن الثالث الهجري عموماً، وفي مؤلفات الجاحظ خصوصاً. انطلاقاً من ذلك يركّز البحث على المَضامين التي احتواها كتاب (البخلاء) لبيان منهجيّة الجاحظ من خلال تلك المضامين الفكاهية والنّوادر الطّريفة، والاحتجاجات المُضحكة .

وعليه يُعنى البحث برصد قيمة الخطاب الهَزليّ لِما لهذا الخطاب من وظائف متعددة: كالوظيفة الإمتاعيّة والوظيفة النقدية، ومِن ثَمَّ يبيّن البحث السمات التي جعلت من الخطاب الهَزليّ خطاباً أدبيّاً وهو ما يمكن أن نسميه(أدبيّة النّص)، وتتضمن: (الشخصيات والحوار والوصف و المفارقة و التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز) .

الكلمات المفتاحيّة :

(الخطاب . الهَزل . المنهجيّة . الأدبيّة . الفُكاهة . السخرية . الضحك)

The comic discourse in the book (Misers) by Al-Jahiz (an analytical critical study)

Research Summary:

The research examines the comic discourse as a literary approach in the book (misers) by Al-Jahiz, indicating the importance of comic discourse and how it turned into a method of authorship, despite the presence of signs of this discourse before the third century AH; Such as humor, irony, rare, blink and joke) has been known since the pre-Islamic era, but taking an approach to authorship did not appear until the third century AH in general, and in the writings of Al-Jahiz in particular. Based on that, the research focuses on the contents contained in the book (misers) to show the methodology of Al-Jahiz through those humorous contents, funny anecdotes, and funny protests. Accordingly, the research is concerned with monitoring the value of comic discourse because of this discourse of multiple functions: such as the pleasure function and the monetary function, and then the research shows the features that made the comic discourse a literary discourse, which we can call (literary text), including: (characters, dialogue, description, irony, analogy, metaphor, metonymy and metaphor.(

List of key words:

(Comic speech literary methodology humor sarcasm laughter)

المقدمة :

شكّل الخطاب الهَزليّ ركيزة مهمّة في السّرديّات منذ ظهور بواكير المؤلفات الأدبيّة في التراث العربي؛ فقد اهتمَّ الأدباء بالخطاب الهَزليّ، وأدركوا تأثيره الفعّال في المتلقي فغدا غنيّاً بالدلالات مَحمّلاً بالرؤى ، لذلك تعمّدوا أن يكون الخطاب الهَزليّ صِنْوَ الخطاب الجادّ في مؤلفاتهم، وصرّحوا بأهميّته في كتبهم، فقد ورد في كتاب(الحيوان) للجاحظ ما يشير صراحة إلى ضرورة الخطاب الهَزليّ الذي لا يقلّ أهمية عن الخطاب الجادّ بقوله: " **هذا كتابُ موعظة وتعريفٍ وتفقّهٍ وتنبيهٍ . وأراك قد عِبتَه قبل أنْ تقفَ على حدوده وتتفكّر في فصوله.... وقد غلّطك فيه بعض ما رأيت (في أثنائه) من مزحٍ لم تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطّلع على غَورها، ولم تدرِ لمَ اجتُلِبَت، ولا لأيِّ علّةٍ تُكلّفت وأيّ شيء أُريغَ عنها، ولأيٍّ جدّ احتُمِل ذلك الهَزل، ولأيٍّ رياضة تجشّمت تلك البَطالة، ولم تدرِ أنَّ المُزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلِبَ ليكون علّةً للجِدّ، وأنَّ البَطالةَ وقارٌ ورزانةٌ إذا تُكلّفت لتلك العاقبة**"[1]

فالجِدّ والهَزل ركيزتان أساسيّتان في التأليف الأدبيّ، وإنتاج النصوص التي تحقق من المُتعة بقَدْر ما تحقق من الإمتاع، وتثير في النّفس من اللذة والرّغبة بقَدْر ما تملؤها من الموعظة والتنبيه، وتحبّب بالدنيا وتغري بها بقَدر ما ترغّب عنها وتزهّد فيها، وتبعاً لهذا التصور يصبح الخطاب الهَزليّ أصلاً من أصول الفِكر عند الأدباء، وتغدو
ثنائيّة(الخطاب الجادّ . الخطاب الهَزليّ) منهجاً في الكتابة وليس زينة نروّج بها الجِدّ ونجعله مقبولاً مستساغاً .

أهمية البحث :

تأتي أهمية البحث من كونِه يُعنى بدراسة منهج من مناهج التأليف متَّخذاً من الخطاب الهَزليّ أساساً في منهج التأليف الذي أسس له الجاحظ في القرن الثالث الهجري ، وقد ظهر الهَزل منذ العصر الجاهلي ولكن لم تتبلور خطوطه ، وتتضح أسسه إلا في كتابات الجاحظ الذي يُعدّ الرائد في هذا المجال .

1 الحيوان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تح : عبد السلام هارون ، المَجمع العلمي العربي ، ط 3 ،1969م ، ج3 ، ص5 .

ولعلَّ قيمة هذا البحث تتمثّل في دراسة الخطاب الهَزليّ وِفق محورين أساسيين لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهما : المنهجيّة والأدبيّة ؛ فالمنهجيّة نعني بها منهج الجاحظ في تأليف كتاب (البخلاء) واتّخاذه من الخطاب الهَزليّ أساساً في سرد النوادر ، وعرض الأفكار التي أراد أن ينقلها لقارئه بأسلوب فنيٍّ مُحكَم أمّا الأدبيّة فهي لا تنفصل عن دراستنا لمنهج الجاحظ ؛ لأنَّها تبيّن أهم السمات التي جعلت من الخطاب الهَزليّ خطاباً أدبيّاً .

والجديد في هذا البحث أنَّه يتناول الخطاب الهزليَّ بوصفه منهجاً في التأليف ، ثمَّ يوضّح الجانب الفنيَّ الذي جعل من ذاك الخطاب خطاباً أدبيّاً .

منهج البحث وإجراءاته :

تقتضي طبيعة المادة المدروسة الاستفادة من مناهج عدّة ، فإنّنا لا نقيّد أنفسنا بمنهج واحد وذلك وِفقاً لطبيعة المادة العلمية التي سندرسها ، إذ إنَّ تنوّع المناهج يفيد أحياناً في إغناء الدراسة و إكسابها قيمة إنسانية وأبعاداً أدبيّة وفنيّة و طوابع حضارية ، ولذا عمدنا في هذا البحث إلى المنهج التاريخي القائم على الدراسة التحليلية مستنداً إلى الموضوعيّة والدراسة النّصيّة ، وكذلك استعنّا بنظريات من المنهج الفني التحليلي الذي يتيح لنا أن ندرسَ أنماطاً من الفُكاهة والهَزل ترتسم فيها معالم جمالية تمكّن من معرفة السمات الأدبيّة والجماليّة في النص الفكاهي من كتاب (البخلاء) .

مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية :

من المصطلحات التي يستند إليها البحث (الفكاهة ـ الضحك ـ السخرية)

أولاً : الفكاهة :

تميّزت الفكاهة بغنى مفرداتها ، إذ يتفرع عنها كلمات تشترك معها في المعنى وتدل على الوفرة في الدلالات . ذكر (ابن سيده) : " أنَّ الفاكه هو المزَّاحُ والتفاكه والمُزاح، وفكّهتُ القومَ بمُلَح الكلام ، والاسم الفُكاهة ، والمصدر الفَكاهة "[1]

كما ذكر الزمخشري في كتابه (أساس البلاغة) ما يأتي : " تفكَّه القوم : أكلوا الفاكهة. ومن المجاز : تفكّه بكذا ، إذا تلذذ به . وفلانٌ فَكِهٌ بأعراض الناس . وفاكهتُ القومَ

[1] المخصص : ابن سيده الأندلسي (398 ـ 458 هـ) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، ط1، 1317هـ السفر الثالث عشر ، ص 19 .

مفاكهة : طايبتهم ومازحتهم . وما كان ذلك إلا مني إلا فُكاهة ، أي دعابة ، و رجل فكهٌ : طيّب النفس ضحوك . وجاءنا بأُفكوهة و أُملوحة"[1]

وفي المعاجم الحديثة نجد المعاني ذاتها ، إذ يذكر (جبّور عبد النور) في المعجم الأدبي تلخيصاً لمعاني الفكاهة فيقول : " إنّها طرفة أو نادرة أو مُلْحة أو نكتة أو حكاية موجزة يسرد فيها الراوي حادثاً واقعياً أو متخيّلاً فيثير إعجاب السامعين . "[2]

من خلال التعريفات السابقة نستطيع أن نستنتج دلالتين للفكاهة : الأولى تدل على التلطّف في المحادثة والكلام ، والثانية تدل على نوع من التلذذ بذكر العيوب ، فالفكاهة إذاً تعبير مكثّف يحتاج إلى سرعة البديهة والقدرة على الإيحاء بطريقة موجزة مكثفة .

ثانياً : الضحك :

ورد في (لسان العرب) : " الضحك : معروف ، ضَحك يضْحَكُ ضَحْكَاً و ضِحْكاً ... والضحك : العَجَب ، وهو قريب مما تقدم . والضَّحْك : الثغر الأبيض ، والضَّحك : العسل ، وقيل الضحك : الشهد ..."[3]

ويحدث الضحك استجابة للفكاهة والهزل ، إذ يرى الدكتور (عبد الكريم اليافي) :

" أنَّ الضحك يتأتى خاصة من الفرح والابتهاج والفوز والانتصار والبشارة السّارة ، إلّا أنَّ المرء قد يضحك دون أن يكون فرِحاً . فللضّحك أسباب نفسيّة تستدعيه غير الفرح. نحن نضحك حين نسمع نكتة أو نادرة أو فكاهة ، وهذا هو النوع الذي يهمنا هنا وهو الذي يحصل من الشعور بالهَزْل اي حينَ يكون الموضوع هَزليّاً . حينئذٍ يدخل الضحك في الدراسات الادبيّة ونجد له قيمة جمالية فنية ."[4]

إذاً يرتبط الضحك . برأي الدكتور عبد الكريم اليافي . بالشعور بالهزل وكذلك بالحالة النفسية للإنسان فليست الغاية من الضحك هي الضحك بحدّ ذاته ، فلا بد من مراعاة

---

[1] أساس البلاغة : الزمخشري ، تح: محمد باسل عيون السود ،دار الكتب العلميّة ، بيروت ـ لبنان ، ط1 ، 1998م ، ج2 ، مادة (فكه) ، ص 32 ـ 33 .

[2] المعجم الأدبي : جبّور عبدالنور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1979م ، ص 194 ـ 195 .

[3] لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، مادة (ضحك)

[4] دراسات فنية في الأدب العربي : عبد الكريم اليافي، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ـ لبنان ، ط1، 1996م، ص52 .

الحالة النفسية التي تستدعيه ، و للضحك سمة واضحة يكتشفها الذهن بين الافكار: كالتناقض العقلي والاستحالة المحسوسة .

ثالثاً : السخرية :

السخرية قديمة قِدم وجود الإنسان ، ولا شكّ أنّها وجدت على مرّ العصور و قد اهتمّ بها الأدباء والنقاد اهتماماً كبيراً ، لأنّها تهدف إلى إيصال رسالة نقدية أو إصلاحية بأساليب ووسائط متعددة .

ورد في (لسان العرب) : " سَخِرَ منه وبه سَخْراً و مَسْخَراً وسُخْراً ، بالضم ، وسُخْرةً وسُخْرِيّاً وسُخْرِيّةً: هزئ به ، والسُّخْرةُ : الضُّحْكَةُ. ورجلٌ سُخْرَةٌ: يَسْخرُ بالناسِ ، وفي التهذيب : يسخر من الناس . ويقال: سَخَرْتُه بمعنى سخّرته أي قهرته ."[1]

أمّا في الاصطلاح : " فتتمثل (السخرية) في منهج جدليّ ، يعتمد على الاستفهام ، بمفهومه البلاغي، إذ تعتبر طريقة في توليد الثنائية ، والتعليم على البعد المعرفي . "[2]

نجد أنَّ السخرية تحمل معنى الهزء ، و قد تكون أعمق أثراً في النفس وأشد وقعاً من غيرها من الكلمات المرادفة لها في المعنى ؛ لأنها غالباً تكون مبطنة ومغلفة يبدي الساخر من خلالها خلاف ما يضمره في نفسه .

حدود البحث والدراسات السابقة :

لعلّ الدراسات السابقة التي وجدناها كانت غير مستقلة ومتفرّقة ، وغير موفية بالغرض الذي نَعمَد إليه من خلال هذه الدراسة . ولا نزعم بأنَّ هذه الدراسة قد ألّمت بجميع جوانب الموضوع ، لكنّنا نأمل أن نكون من خلال هذا البحث أفدنا القارئ وفتحنا المجال أمام الباحث الذي يريد أن يدرس منهجاً من مناهج التأليف لدى القدماء .

من الدراسات السابقة رسالة ماجستير بعنوان :

(السخرية في الأدب العباسي كتاب "البخلاء" للجاحظ نموذجاً) وهي إعداد الطالبتين : تينهينان يمون و ليلة سعيد ، فكان اختيار هذا البحث رغبة في الكشف عن سحر البيان عند الجاحظ وسبر أغواره .

---

[1] لسان العرب : ابن منظور ، ص 352 - 353 .مادة (سخر)

4 معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،ط1 ، 1985 ، ص52 .

ومن الدراسات السابقة أيضاً : كتاب (السخرية في أدب الجاحظ) للسيد عبد الحليم محمد حسين .

وكتاب (أدب الفكاهة عند الجاحظ) للدكتور أحمد عبد الغفار عبيد ، وقد أفّدنا من هذه المراجع التي درست نتاج الجاحظ الأدبي والفكري ، فقد أمدّتنا هذه الدراسات بشيء غير قليل من العلم والفكر ، لكنَّ ما عمَدنا إليه من خلال هذا البحث هو دراسة المنهج الذي اعتمده الجاحظ في كتاب (البخلاء) متخذاً من الخطاب الهَزليّ أساساً له .

التمهيد :

قبل أن نسير في تفاصيل بحثنا لا بدّأن نقفَ عند مصطلح (الخطاب) و (الهَزل) في اللغة والاصطلاح

1. (الخطاب) لغة واصطلاحاً :

(الخطاب) لغة : "خطب الرجل خَطَابة فهو خطيبٌ بَيّنُ الخطابة واسم الكلام الخُطْبةُ وخِطبة . النساء بالكسر وكذلك هو في التنزيل (لا جُناحَ عليكم فيما عرّضتم من خِطبةِ النساءِ) واللّه أعلم .... والخَطْبُ الأمر العظيم والجمع خُطُوبٌ . والخِطابُ مصدر خاطبته مخاطبةً وخِطاباً "[1]

وفي لسان العرب: "الخِطابُ والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخِطاباً ، وهما يتخاطبان..... وذهب أبو إسحق إلى أنّ الخُطْبةَ عند العرب: الكلام المنثور المسجّع، ونحوه . والمخاطبة مفاعلة من الخطاب و المشاورة ."[2]

يكاد الباحث في المعجمات اللغويّة يجد إجماعاً على أنَّ الخطاب هو (مراجعة الكلام) ، ومن ثَمَّ لا يتحقق الخطاب إذا انعدمت تلك المراجعة بالكلام ، فهي تقتضي المواجهة بين طرفين هما : المخاطِب وهو المرسِل ، والمخاطَب و هو المرسَل إليه .

أما في الاصطلاح فقد ورد في معجم المصلحات العربيّة "الخطاب : الرسالة نص مكتوب ينقل من مرسل إلى مرسل إليه، يتضمن عادةً أنباء لا تخصّ سواهما."[3]

---

[1]جمهرة اللغة: ابن دريد أبي بكر محمد بن الحسين الأزدي البصري ت 321هـ ،دار صادر بيروت، ط1، 1345هـ ، ج1،ص:237 ،مادة (خطب)

[2]لسان العرب : أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، ،ج13، ص361 ،مادة(خطب) .

[3]معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة ـ كامل المهندس، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط2، 1984م ،ص159 .

ويرى سعيد علّوش أنَّ " الخطاب: مجموع خصوصي التعابير، تتحدد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الإيديولوجي ..... ويمتلك (الخطاب الأدبي)، أبعاداً شاعريّة تميزه عن الخطابات المباشرة. (الخطاب المباشر) خطاب حواري، يستغني عن الكثير من تقنيات المجازية."[1]

يلتقي المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي للخطاب، في كون الخطاب الأدبي ينشأ خاصة من صَوْغ اللغة عن وعي وإدراك، و يتّضح لنا أنَّ الخطاب لا بدّ له من مُرسِل و مُرسَل إليه وهما المبدع والمتلقي.

2. (الهَزْل) لغة واصطلاحاً :

ورد في (لسان العرب) :" الهَزْل نقيض الجدِّ، هَزَل يهزِل هزلاً. وأهزله: وجده لعّاباً. وقوْلٌ هَزْلٌ. هُذاءٌ، وفي التنزيل:" وما هو بالهَزْلِ". والهُزالة الفكاهة ."[2]

أمّا الهَزليّ في الاصطلاح فهو:" شكل من أشكال الملهاة، أو محاكاة يقصد بها الاستهزاء عن طريق المبالغة. أو موقف أو أسلوب أو فكرة يتناولها الكاتب بالتحوير والتشويه؛ يأخذ موضوعاً مهماً أ، رفيعاً ويفرض عليه الطابع العادي المبتذل . وقد يكون التناول على العكس من ذلك أي أن يأخذ موضوعاً عادياً تافهاً باعتباره ذا وقار و مكانة مما يدعو إلى الاستهزاء ."[3]

يتبيّن ممّا سبق ـ من خلال الدلالة اللغوية والاصطلاحية ـ أنَّ الهَزلَ يحمل معنى السخرية والاستهزاء والفكاهة التي ترجع في أصلها إلى هدف واحد وهو الضحك، إذ إنّ مفهوم الهَزل في الأدب يقع على دلالات كثيرة نابعة من تنوع هذا الفن، أو من تنوع الموضوعات التي يعرض من خلالها الخطاب الهَزليّ، ولعلّ الفكاهة من أهم الدلالات التي يشملها الخطاب الهَزليّ " والتي حار الباحثون في وضع تعريف دقيق لها ، إذ تشمل السخرية واللّذع والتهكم والهجاء والنّادرة والدعابة والمُزاح والنّكتة و"القفش" والتورية والهَزل والتّصور الساخر "الكاريكاتوري" "[4]

---

4 معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : سعيد علوش ، ص 83 .

[2]لسان العرب: ابن منظور، مادة (هزل) .

[3]معجم المصطلحات الأدبية :ابراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، د.ط ،1986م،ص399.

[4]الفكاهة في مصر: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، 1943م ،ص10 .

3 ـ منهجيّة الخطاب الهَزليّ في كتاب(البخلاء) للجاحظ :

ظهر الخطاب الهَزلي في عصر ما قبل الإسلام من خلال شعر الغزل العابث وما يلحق به من شعر الخمرة في بعض مجالس المنادمة، فضلاً عن ظهوره في شعر الهجاء الحافل بالصور الساخرة، أمّا في العصر الإسلامي فقد أخذ الهَزل ينحو مناحي جديدة مستمدة من مبادئ الدين الجديد الذي منع التعرّض للمسلمين بشتّى أشكال الهجاء الذي ينال منهم، فكان الرسول الكريم (صلّى الله عليه وسلم) يمزح ويضحك " حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث قال : حدثني ابن عجلان ، عن أبي هريرة ، قالوا يا رسول الله إنّك تُداعِبنا . قال : إنّي لا أقول إلا حقاً "[1] ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يمزحون ويضحكون ، فالجِدّ يقتضي تعاملاً مع الحقيقة ، والهَزل يغيّر الحقائق ويلونها ولا بدّ للنفس ما يسلّيها و يخرجها من الجدّ إلى الهَزل لأنَّ النفس تمل اعتماد الجدّ فلا بدّ من الاستجمام ببعض الهزل .

و يرى الدكتور (نعمان محمد أمين طه) أنه " كانت هناك سخرية في العصر الجاهلي والإسلامي، ولم تكن هذه السخرية عميقة، بل كانت بسيطة بساطة الجاهليين، سهلة تبعاً لحياتهم غير المعقدة، خفيفة الوقع، لا تعدو السخرية الفطرية التي تؤثر على أناس متأخرين يكتفون باللمحة والتعريض دون الإلحاح في السخرية والتنويع والتفنن في أساليبها الموجعة"[2]

إذاً نجد أنَّ السخرية لم تكن غائبة في العصرين الجاهلي والإسلامي ، لكنّها كانت تتناسب مع حياتهم و أساليبهم فلا تصل إلى حدّ الإيلام والتجريح .

وقد تجلّى الهَزل في العصر الأموي من خلال فن النقائض الذي دار على لسان ثلاثة من الشعراء(جرير والفرزدق والأخطل)؛فلم يخلُ فن النقائض من بعض النواحي الهازلة والصور الساخرة في كثير من الأحيان ، ثمَّ ازدهر الخطاب الهَزلي في العصر العباسي ازدهاراً كبيراً واتخذ خُطىً جديدة جعلت منه منهجاً في التأليف كان رائده (عمرو بن بحر

4 الأدب المفرد : محمد بن اسماعيل البخاري ، خرّج أحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، صنع فهارسه : رمزي سعد الدين دمشقية ،دار البشائر الإسلامية ، بيروت ـ لبنان ، ط3 ، 1989م ، ص 102.

[2]السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: نعمان محمد أمين طه، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ط1، 1978م،ص67.

الجاحظ) الذي دافع عنه وراح يمزج الهَزل بالجدِّ، فكان على رأس الكتّاب الذين سلكوا هذا المذهب ، وفتحوا آفاقه بوعي و قصد كما جعل للفكاهة منزلة خاصة في مؤلفاته، " إذ يعدّ الجاحظ أسبق الكتّاب العرب احتفالاً بالفكاهة، وحشداً لها في ثنايا مؤلفاته، وهو صاحب مذهب مشهور في مزج الهَزل بالجدّ، والخروج بقارئه من أدقّ المسائل وأشدّها عمقاً وتعقيداً إلى أيسر الموضوعات، وربّما استطرد به إلى شيءٍ من النوادر الطّريفة والفكاهات العَذبة. "[1]

وسنقف عند واحدٍ من مؤلفات الجاحظ ، كتاب (البخلاء) الذي هدف فيه إلى تسلية القارئ وإضحاكه، كما عَمد إلى فئات المجتمع كافة لينقلَ عيوبها بروح ساخرة فكِهة وذلك بغية إصلاحها، وهذا ما يؤكده الدكتور عبد الحليم محمد حسين إذ يقول:" لقد كان "الجاحظ" في كتابه "البخلاء" دقيقاً في تصويره بارعاً في وصفه، ساخراً مع شخصياته، داعياً إلى الضحك والمُزاح... وقد دافع "الجاحظ" عن الضحك وبيّن آثاره وفوائده وقرر أنّه ذات قيمة للنفس والجسم ."[2]

يقول الجاحظ في مقدمة كتاب (البخلاء): " ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيّن حُجَّة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مَلِلْت الجدّ."[3]

يتبيّن لنا من هذا القول أنَّ الجاحظ عرف الغاية التي أرادها من هذا الكتاب، وعرّفها للقارئ فهو لا ينفصل عن بيئته ومجتمعه لقد كان ـ في سخرياته ـ يعتمد على إبراز الصورة كما يراها الرائي، وكما يرسمها المصوّر الماهر، فكان يخرجها لوحات فنية بارعة، لا يغادر من مقوماتها شيئاً، في دقّة ملاحظة وخصوبة خيال لا تكلُّف فيها ولا تصنّع ولا مبالغة ، مستشفاً الحركات الشعورية، متغلغلاً في الخفايا النفسية، مستنبطاً الإحساسات الخفيّة.

---

[1] أدب الفكاهة عند الجاحظ : أحمد عبدالغفار عبيد، جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية بالمنصورة ، ط1، 1982م،ص5 .

[2] السخرية في أدب الجاحظ : عبدالحليم محمد حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1988م، ص93.

[3] البخلاء:الجاحظ، تح : طه الحاجري، دار المعارف، ط6، 1905 م، ص5.

تبرز أهميّة الخطاب الهَزليّ في كتاب (البخلاء) من خلال التعرّف إلى الوظائف التي يؤديها ، والتي نريد أن نوضحّ من خلالها منهج الجاحظ في تأليفه لهذا الكتاب، ومن هذه الوظائف:

أولاً: الوظيفة الإمتاعية :

يعتمد الخطاب الهَزليّ في كتاب (البخلاء) على النّادرة، التي تعدّ المصطلح الجامع لهذا النوع من الأدب الذي يندرج فيه أنواع متعددة، والنّادرة "خبر قصير في شكل حكاية ، أو عبارة أو لفظ يثير الضحك."[1]

ويقوم الخطاب الهَزليّ على الفكاهة أو التفكّه ؛ فالفكاهة من الجوانب المميزة للسلوك الإنساني "وإذا ذهبنا نستقصي الفكاهة العربيّة وجدنا أنفسنا إزاء كنز لا تحصى جواهره، ولا تستنفد ذخائره، وهنالك روايات وفكاهات مجهولة الواضع ومجهولة العصر يصعب اعتمادها في بيان التطور التاريخي."[2]

و أمّا الضحك فهو التعبير الجسمي أو الفيزيولوجي عن هذا الجانب، فالفكاهة رسالة اجتماعية يُقصد بها إنتاج الضحك أو الابتسام، فالضحك من أصل الطّباع كما بيّن الجاحظ في مقدمة كتاب (البخلاء) وذلك بقوله:" وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً، ومن مصلحة الطباع كبيراً، وهو شيء من أصل الطباع، وفي أساس التركيب؛ لأنَّ الضحك أول خير يظهر من الصّبي. وقد تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علّة سروره، ومادة قوته."[3]

إنَّ أبرز ما يميز الخطاب الهَزلي خصوصية البناء الموجز المكثف ، وهذا ما نجده في كتاب (البخلاء) للجاحظ، نذكر على سبيل المثال، في حديث الجاحظ عن بخل أهل خراسان ويخص منهم أهل مَرو:

" حدّثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظام قال: قُلتُ مرة لجارٍ كان لي، من أهل خراسان: أعرني مقلاكم فإنّي أحتاج إليه. قال: قد كان لنا مِقلى ولكنَّه سُرِق. فاستعرت

---

[1] أشكال التعبير في الأدب الشعبي: نبيلة ابراهيم، دار المعارف ، القاهرة، ط2، 1974م،ص204.

[2] مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت،ط4، 1986م، ص280.

[3] البخلاء : الجاحظ ، ، ص6 .

من جار لي آخر. فلم يلبث الخُرَاسانيّ أن سمعَ نشيش اللحم في المِقلى، وشمَّ الطباهج ، فقال لي، كالمغضِب: ما في الأرض أعجب منك، لوكنتَ خبَّرتني أنَّك تريده لِلَحم أو لشحم لوجدتني أسرع إليك به، إنّي خشيتك تريده للباقلّى، وحديد المِقْلى يحترق إذا كان الذي يُقلى فيه ليس بدسِم. وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج، والمِقلى بعد الرّد من الطباهج أحسن حالاً منه في البيت."[1]

ويقول في قصة أبي جعفر: " لم أرَ مثل أبي جعفر الطّرَسوسي: زار قوماً فأكرموه وطيّبوه، وجعلوا في شاربه وسَبَلته غالية . فحكّته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكّها من باطن الشفّة، مخافة أنْ تأخذ إصبعه من الغالية شيئاً إذا حكّها من فوق. وهذا وشبهه إنّما يطيب جدّاً إذا رأيت الحكاية بعينك. لأنّ الكتاب لا يصور لك كلّ شيء، ولا يأتي على كنهه، وعلى حدوده وحقائقه. "[2]

" وحديث سمعناه على وجه الدهر. زعموا أنّ رجلاً قد بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وأنّه كان إذا صار في يده الدرهم، خاطبه وناجاه وفدّاه واستبطأه. وكان ممّا يقول له: " كم من أرض قد قطعت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامل رفعتَ، ومن رفيع أخملت. لك عندي أن لا تعرى ولا تَضْحى" ثمّ يلقيه في كيسه ويقول له: " اسكن على اسمِ الله في مكان لا تُهان ولا تُذلّ ولا تُزعَج منه" وأنّه لم يُدخِل فيه دِرهماً قطّ فأخرجَه. "[3]

وقال الجاحظ في أثناء حديثه عن قصة أبي محمد الخزامي : " قلت له مرة: قد رضيت بأن يقال : عبد الله بخيلٌ؟ قال: لا أَعدمني الله هذا الاسم. قلت: وكيفَ؟ قال: لا يقالُ فلانٌ بخيلٌ إلّا وهو ذو مال، فسلم إليَّ المال، وادعُني بأيّ اسم شئت. قلت: ولا يقالُ أيضاً فلانٌ سخيٌّ إلّا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، واسمُ البخيل يجمع المال والذم . فقد اخترت أخسّهما وأوضعهما. قال: وبينهما فرق. قلت: فهاتِه. قال: في قولهم بخيلا تثبيتٌ لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخيٌّ إخبار عن خروج المال من ملكه. واسمُ البخيل اسمٌ فيه حفظ وذمّ، واسمُ السخيِّ اسمٌ فيه تضييعٌ وحمد. والمالُ زاهر مكرِم لأهله معزٌّ ، والحمدُ ريحٌ وسُخرية، واستماعك له ضعفٌ وفسولة وما أقل غناء

[1] البخلاء: الجاحظ، ص23 . الطباهج : اللحم المشرّح ، و الباقلّى : الفول .
[2] المصدر نفسه ، ص58. الغالية : أخلاط من الطّيب .
[3] البخلاء: الجاحظ ، ص131.

الحمد ـ والله ـ عنه،إذا جاع بطنُه ، وعرى جلده، وضاع عياله، وشمِت به من كان يحسده. "[1]

إنَّ الخطاب الهَزليّ يشتمل على مكوّنين أساسيين:

1. البعد المعرفي الخاص بمعرفة المتلقي بما سيحدث لاحقاً في مسار السرد وهو البدء بتكوين توقّع المتلقي عند سماعه للقصة أو النادرة؛ ففي المثال الأول يصف الجاحظ بخل أهل خراسان ويخصّ أهل مرو، فيؤكد أنَّ البخل فيهم من أصل الطباع ، وهنا يحاول المتلقي أن يستند إلى خبرته الخاصة ومعرفته المتنوعة في أهل الكرم.

2. فن الإضحاك ، إذ يرتبط بحدوث الدهشة التي تنتهك حالة التوقع السابقة لدى المتلقي، وتغير مسارها بطريقة غير متوقعة، وهذا ما نراه في المثال الثاني، فكيف يحكّ الطَرَسوسي شفّته العليا من باطنها خشية أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئاً، وذلك لشدة بخله وهنا تقع المفارقة والدهشة والغرابة التي نجدها في هذا المثال؛ لأنّ فعل الطرسوسي جاء مخالفاً للتوقعات مثيراً للضحك، إذ يدخل في حيّز اللامعقول فلا بدّ أن يقوم المتلقي بعد هذا الإدراك بإقامة نوع من " التمسك الخاص في المعنى بين هذا التناقض الموجود عند حدّ الضحك وبين البداية الخاصة بالخطاب الهَزلي التي أثارت التوقع الذي لم يتحقق. هنا لا بدّ أن يقوم المتلقي بإعادة تأويل ، أو تفسير لما يحدث عند حدّ الضحك."[2]

وقد يعتمد الخطاب الهَزليّ ـ في بعض الأحيان ـ على المشهد الفُكاهي الذي يعمل على إثارة الضحك لدى المتلقي، من ذلك ما ذكرناه في المثالين الثالث والرابع؛ ففي المثال الثالث نجد أنّ المشهد الفكاهي تجسّد في مخاطبة الرجل للدرهم: (اسكن على اسمِ الله في مكان لا تُهان ولا تُذلّ ولا تُزعج منه) وهو بذلك يؤكد عدم خروج الدِّرهم مدى الدّهر . و قد يركّز الخطاب الهَزليّ على مجموعة من السلوكيّات أو الأقوال، أو الأفعال التي تدلّ على الغفلة أو الذهول، أو عدم إدراك العواقب، " ومن ثَمّ فهي تثير الشعور بالدهشة، وكذلك الضحك. وترتبط هذه الأقوال والأفعال ـ في معظمها ـ بطائفة الحَمقى ؛ الذين يستجيبون للعالم من خلال الدهشة، ويتصرفون بشكل غير مألوف يصل أحياناً إلى حدّ

[1] المصدر نفسه ، ص62 .

[2] يُنظر: الفكاهة والضحك رؤية جديدة : شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) ، الكويت ، د. ت ، 2003م ، ص394 .

العَبث واللامعقوليّة، فهم يسلمون وعيهم، أو عدم إدراكهم على نحو إرادي أو غير إرادي، إلى قوى منظورة ومجهولة بالنسبة إليهم، ويتصرفون كما لو كانوا واقفين في قبضتها وتحت أسرها القائم، ومن ثَمّ يقومون بسلوكيّات مفاجئة تثير الضحك لدينا، فهم ينتهكون النظام الاجتماعي القائم، ويتجاوزون معاييره، ومن ثَمّ يحدثون الضحك."[1]

و بذلك نستطيع القول: إنَّ الخطاب الهَزليّ يُعدّ مكوّناً رئيساً في كتاب (البخلاء) ، فقد أدرك الجاحظ أنَّ الضحك والإضحاك يقوم على القدرة في مزج الحقيقة الجافة بالهَزلِ والمرح، كما أدرك أثر الخطاب الهَزليّ في النفوس وذلك من خلال الوظيفة الإمتاعيّة التي يؤديها. و" هكذا نرى أنَّ كل ما يُضحِك فهو هَزل، ولكنّه ينقسم قسمين: أحدهما ليس له غرض إلَّا الإضحاك فحسب وهو ما يطلق عليه الفكاهة، والآخر له غرض هادف واضح . سواء أكان معيّناً أو غير معيّن حين إلقاء النّكتة . وهو السخرية."[2]

وسنتعرّف ـ في الصفحات القادمة ـ إلى الوظيفة النّقدية للخطاب الهَزليّ، إذ يغدو الخطاب الهَزليّ ـ بموجبها ـ صِنْو الخطاب الجادّ في كتاب (البخلاء) .

ثانياً: الوظيفة النّقديّة :

لم يكن الضحك هو الغاية الوحيدة للخطاب الهَزليّ، فقد كان للجاحظ غايات نقديّة في كتاب (البخلاء) معتمداً في ذلك على حسِّه في اكتشاف الجوانب المضحكة في طبائع النّاس، وفَهمه العميق لجميع الجوانب النّفسيّة لأفراد مجتمعه ، حيث يحلل طبائع البشر ويقف على دوافع سلوكهم ونزعاتهم، فنجد للخطاب الهَزليّ في كتابه وقْعاً في النفس، لأنَّ كل فكاهة تلتمس قضية اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية بطريقة ذكية هادفة تكتسب أهمية عُظمى، وتعدّ تسجيلاً صادقاً للواقع الاجتماعي، ومعايشةً لحياة فئات من الناس، فالخطاب الهَزليّ في كتاب (البخلاء) لم يأتِ عفوَ الخاطر،" ذلك أنَّ الفنَّ الهَزليّ ، لم

[1] يُنظر: سيكولوجيّة الفكاهة والضحك، زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة، مصر، د.ط، د.ت، ص150.

[2] السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، نعمان محمد أمين طه، ص9ـ ص10 .

يكن نوعاً من اللّعب واللهو، بل هو مجهود يبذله الإنسان لكي يصير وعياً من الناحية الفكريّة، يُعلي من شأن القيم، ويرتفع بالإنسان وبمستواه السلوكي."[1]

لقد عبّر الجاحظ ـ في كثير من اختياراته ـ عن معاناة البخيل وجشعه بأسلوب فكاهي؛ فالبخل يُورث الطمع في أغلب أحواله، ويظنّ البخيل أنَّه يتّجه نحو السعادة في كنْز المال وجمعه، في حين أنَّه لا يحظى في النهاية سوى بالشِّقوة، شِقوة الحِرمان، وذلّ الامتلاك الذي لا ينفع صاحبه، بل يذهب ما يكنزه البخيل إلى أقاربه وورثته من بعده، وسنورد أمثلة من كتاب(البخلاء) توضح ذلك:

" حدّثني مُويس بن عمران قال: قال رجلُ منهم لصاحبه ـ وكانا إمّا متزاملين و إمّا مترافقين ـ: لمَ لا نتطاعم؟ فإنَّ يدَ الله مع الجماعة، وفي الاجتماع البركة، وما زالوا يقولون: طعامُ الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة. فقال له صاحبه: لولا أعلم أنَّك آكل مني لأدخلتُ هذا الكلام في باب النصيحة. فلّما كان الغدُ، وأعاد عليه القول، قال له: يا عبدَ الله معك رغيفٌ ومعي رغيف، ولولا أنَّك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتي. تريد الحديث والمؤانسة؟ اجعل الطبقَ واحداً، ويكون رغيف كل منّا قدّام صاحبه. وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجُده مباركاً. إنّما ينبغي أن أكون أجدُه أنا لا أنت."[2]

هذه النادرة قالها الجاحظ في أهل مرو، فالقارئ يظن أنَّ الصديق لصديقه و أنّ المؤاكلة بينهما من أبسط الأمور التي يتبادلها المترافقين ، لكنّ رفضه للمؤاكلة على هذه الشاكلة يفاجئ المتلقي ـ على اختلاف ثقافته ومعرفته بالبشر وطبائعهم ـ وهذا نقدٌ ضمنيٌّ للواقع المعيش في خراسان ، فإنَّ ثمّة إنجازاً محبوكاً بعناية يرتكز على التكثيف ويحاكي المواقف والأفكار ، مستنداً إلى خلفيّة أدبيّة ذات فاعلية تقنية واضحة، اعتمدت مبدأ السخرية الموظف لإبراز السلبيات في مجتمع الجاحظ.

يهدف الخطاب الهَزليّ الذي يقوم على السخرية إلى انتقاد الرذائل والنقائص الإنسانية، الفردية منها والجماعية، ويكون الهدف منها محاولة التخلّص من بعض الخِصال

[1] أدب الفكاهة الأندلسي دراسة نقدية تطبيقية، حسين خريوش، منشورات جامعة اليرموك، د.ط، 1982م، ص11.

[2] البخلاء: الجاحظ، ص18 ـ ص19 .

والخصائص السلبية، فالجاحظ في كثير من الأحيان يُطلِعنا على النقائص التي كانت سائدة في مجتمعه، ولعلَّ البخل من أبرز السلوكيّات البشرية اشتمالاً على التناقض في المعنى والازدواج في السلوك، فالبخيل لا يحظى سوى بشقوة الحرمان لأنّه يملك ولا يعطي، وهو حتى على نفسه لا يتقبل العطاء فكيف يكون العطاء عنده للآخرين؟ .

والبخيل في كتاب (البخلاء) لا يتمتع بصفة البخل فحسب بل إنّه يسوّغ لنفسه الكذب ويجعله مع الصدق في كفّة واحدة، ومثال ذلك ما حدّثنا به الجاحظ عن والٍ كان بفارس، إذ يقول:

" ومثل هذا الحديث ما حدّثني به محمد بن يسير عن والٍ كان بفارس، إما أن يكون خالداً خُومَهْرَويْهِ أو غيره، قال: بينا هو يوماً في مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره، وقد احتجب بجهده، إذ نَجم شاعرٌ بين يديه، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجّده. فلمّا فَرغ قال: قد أحسنتَ. ثمّ أقبل على كاتبه فقال: أعطه عشرَة آلاف درهم. ففرح الشاعر فرحاً قد يُستطار له، فلما رأى حاله قال: وإني لَأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقِع؟ اجعَلها عشرين ألفَ درهم. فكاد الشاعر يخرج من جلده. فلمّا رأى فرحه قد أضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعف على قَدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألفاً. فكاد الفرح يقتلُه. فلما رجعت إليه نفسه قال له: أنتَ . جُعلتُ فداك . رجل كريم، وأنا أعلمُ أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتَني في الجائزة، وقبولُ هذا منك لا يكونُ إلّا من قلّة الشكر. ثمّ دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان الله هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ قال: ويْلكَ وتريد أن تعطيَه شيئاً؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق، إنّما هذا رجلٌ سرَّنا بكلام ، وسررناه بكلام. هو حينَ زعمَ إنّي أحسن من القمر، وأشدّ من الأسد، وأنَّ لساني أقطعُ من السيف، وأن أمري أنفذ من السِّنان جعلَ في يدي من هذا شيئاً أرجعُ به إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذبَ؟ ولكنه قد سرَّنا حين كذبَ لنا، فنحنُ أيضاً نسرُّه بالقول ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً، فيكون كذبٌ بكذب وقولٌ بقول. فأما أن يكون كذبٌ بصدق وقول بفعل، فهذا هو الخسران المبين الذي سمعت به."[1]

[1] البخلاء ، الجاحظ ، ص26 - ص27.

نلاحظ في المثال السابق أنَّ البخيل لا يكفيه بخله، بل إنّه يسوّغ لنفسه الكذب، وهنا تقع المفارقة في قوله: فنحن أيضاً نسرّه بالقول .. وإن كان كذباً، فيكون كذبٌ بكذب وقول بقول، وفي ذلك تسويغ للكذب وخِداع معلّل، فالبخيل في هذا المثال لا يسوّغ الكذب ويجعله مقبولاً من دون دليل وتعليل لفعله، فلم يكن إيراد الجاحظ لمثل هذه النادرة سوى رغبة في نقد المجتمع وما آل إليه في ذلك الوقت، إذ " يقودنا فكر الجاحظ إلى استنتاج مجموعة من العناصر التي تشكل البنية الأساسية لمنهجه النقدي وهذه العناصر هي: الموضوعية، والواقعية، والمنطقيّة، والعقلانية، والعفويّة، ومراعاة العرف، ومراعاة الخصوصية."[1]

لقد بدَت لنا موضوعية الجاحظ في خطابه الهَزليّ من خلال الممارسة النقدية في تحليل ضروب السلوك الاخلاقي المختلفة للبخلاء، وإن كان يجنح كثيراً إلى الروح التهكمية والسخرية في معظم خطاباته، فإنَّ ذلك لم يبتعد به عن الموضوعية في تصوير الوقائع ونقلها ومناقشتها ، لأنّنا نجده ينتقد أخلاق البخلاء وفي الوقت ذاته يبدي إعجابه بذكائهم وظُرْفهم وطرافتهم، وطيبتهم، فعلى سبيل المثال يقول الجاحظ:

" وأمّا أبو محمد الحزاميّ، عبدُ الله بن كاسب، كاتبُ مُوَيْس، وكاتب داودَ بنِ أبي داود، فإنّه كان أبخلَ من برأ الله، وأطيبَ من برأ الله."[2]

ويقول الجاحظ في بداية حديثه عن أحمد بن خلف: " من طِياب البخلاء، أحمد بن خلف اليزيدي"[3]

نلاحظ أنَّ الجاحظ كان موضوعيّاً في نقده ، فلم يقف من بخلائه موقف العَداء ولم يتجاوز القصد في تصويره لهم، فلم يرد أن يجعل كتابه في سرد النوادر فحسب، إنّما أراد أن يضفي على مؤلّفه طابع الواقعية، ويجعله موضوعاً حيّاً يجذب انتباه القارئ، ويشوّقه لمتابعة النادرة، وذلك من خلال المناظرات التي تأخذ شكلاً جادّاً في حين يكون مضمونها هزلاً وسخرية.

[1] فلسفة الأخلاق عند الجاحظ : عزّت السيد أحمد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط ، 2005م، ص167 .
[2] البخلاء: الجاحظ ، ص 59.
[3] المصدر السابق : ص41 .

وممّا يوضح لنا الوظيفة النقدية التي أدّاها الخطاب الهَزليّ في كتاب (البخلاء) أنّ الجاحظ كان يُورِد القصة . في كثير من الأحيان . ثمّ يعلق عليها مبدياً رأيه، موضحاً إدراكه لملامح الشخصيّات التي جعلها موضوعاً لكتابه، وهو بذلك يدل على وعيه التام بحقيقة البخل، يتتبع مظاهره في سلوك البخلاء الحقيقيين، الذين يصدق عليهم هذا الوصف ولا يتعداهم إلى غيرهم، يقول الجاحظ على سبيل المثال:

" وحديث سمعناه على وجه الدهر. زَعموا أنَّ رجلاً قد بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وأنّه كان إذا صار في يَده الدرهمُ، خاطبه وفدّاه واستبطأه. ..... وأنَّ أهله ألحّوا عليه في شهوة، وأكثروا عليه في إنفاق درهم، فدافعهم ما أمكنَ ذلك. ثمّ حملَ درهماً فقط. فبيناهُو ذاهبٌ إذ رأى حوّاء قد أرسلَ على نفسِه أفعى لدرهم يأخذه، فقال في نفسه: أتلفُ شيئاً تُبذَلُ فيه النفس، بأكلة أو شربة؟ والله ما هذا إلا موعظةٌ لي من الله. فرَجع إلى أهله، وردّ الدرهم إلى كيسه. فكان أهله منه في بلاء، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت، والحياة بدونه."[1]

يعلّق الجاحظ على هذه النادرة فيقول: " ولا يعجبني هذا الحرف الأخير، لأن الإفراط لا غاية له. وإنما نحكي ما كانَ في الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثله، أو حجة أو طريقة. فأمّا مثل هذا الحرف فليس مما نذكرُه. وأمّا سائر حديث هذا الرجل فإنّه من هذه البابة."[2]

بذلك نلاحظ أنّ الخطاب الهَزليّ يعدّ مكوّناً رئيساً في كتاب (البخلاء) وذلك من خلال الوظيفة النقدية، وهنا لا بدّ أن نشيرَ إلى فكرة مهمة ، وهي أنَّ الفصل بين الوظائف التي أدّاها الخطاب الهَزليّ لم يكن سوى فصلاً شكليّاً؛ إذ لا يمكن الفصل بين المتعة التي يؤديها الخطاب الهَزلي . في نادرة من النوادر . عن النقد اللاذع من جهة والسخرية التي تهدف إلى الإصلاح وتقويم السلوك الإنساني من جهة أخرى، فنحن حين نضحك من البخيل فإنّما نؤدّبه بصورة غير مباشرة ، ومعنى ذلك أنَّ الخطاب الهَزليّ في كتاب(البخلاء) أدى وظيفة نقدية هدفها التأديب وتقويم السلوك المضاد للسلوك الإنساني القويم، إلى جانب الوظيفة الإمتاعيّة وتشويق القارئ لتتبع الأحداث

[1] البخلاء : الجاحظ ،ص131 .
2 البخلاء: الجاحظ ، ص132 .

2 ـ أدبية الخطاب الهَزلي :

الأدبيّة هي: " طابع ما هو خالص في الأدب، أي ما هو شاعريّ، منذ بدايته. وليس موضوع علم الأدب، عند (ياكبسون)، هو الأدب ، بل هو(الأدبية) أي ما يجعل من عمل،،، عملاً أدبياً، ويضعف من مبدأ السببية المباشرة، بين ظروف الكاتب وإنتاجه الأدبي، مما يسمح بتفسير دوافع الإنتاج، لا الإنتاج ذاته."[1]

إذ يبيّن البحث السمات التي جعلت من الخطاب الهَزليّ خطاباً أدبياً وهو ما يمكن أن نسميه (أدبيّة النّص) وتتضمن: (الشخصيات ـ الحوار ـ براعة الوصف ـ التشبيه ـ الاستعارة ـ الطباق ـ السجع)

لا بدّ من أنْ نتعرّف على طبيعة تكوين القطعة النثريّة الفَكِهة من حيث الأسلوب الذي سار عليه الجاحظ، لما لذلك من عظيم الأثر في استطلاع نفسيّة قائلها ومعرفة البيئة التي ظهرت فيها، ومن ثَمَّ معرفة الغرض الذي أُنشِئت من أجله. وعلى هذا الأساس سوف نمضي في تقصّي أهم الخصائص في الصياغة والأسلوب لدى الجاحظ في كتابه (البخلاء) .

1ـ الشخصيات:

تتنوع الشخصيات في كتاب (البخلاء) ، فقد كان من بين الشخصيات التي تطرّق إليها الجاحظ، شخصياتٌ صوّرها تصويراً فكاهياً مضحكاً، إذ يقول على سبيل المثال في خالد بن يزيد :" وهذا خالدُ بنُ يزيد مولى المهالبة ـ هو خالَوَيه المُكَدِّي ـ وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغَ التي لم يَبْلغها احد. وكان ينزل في شقِّ بني تميم، فلم يعرفوه. فوقف عليه ذاتَ يومٍ سائلٌ، وهو في مجلس من مجالسهم، فادخل يده في الكيس ليُخرج فلساً. وفلوس البصرة كبار ـ فغلط بدرهم بَغْلى، فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل، فلما فطن استردَّه، وأعطاه الفلسَ. فقيل له: لا نظنه يحلّ وهو بعدُ قبيح . ليس هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس . واللهِ ما أعرفه إلّا بالفِراسة. "[2]

[1] معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : سعيد علوش، ص 32

[2] البخلاء : الجاحظ ، ص:46 .

وهناك العديد من التوصيات ـ التي تبناها أشخاص عرفوا ببخلهم ـ في حمْد البخل تبعث على الاستهزاء والضحك ؛ لما فيها من تزيين لهذه الصفة خلافاً لما هو مألوف عند العرب من الاعتزاز بالكرم، ومن ثَمَّ إلباس تلك التوصيات زيّاً يحبّبها للغير ، ويشجّع عليها . من ذلك رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب . يقول الجاحظ:

" بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ. أصلح الله أمركم وجمعَ شملكم، وعلَّمكم الخير وجعلكم من أهله.

قال الأحنف بنُ قيس: يا معشرَ بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة، فإنَّ أسرع الناس إلى القتال أقلُّهم حياءً من الفِرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردتَ أن ترى العيوب جمّة فتأمَّل عيَّاباً، فإنَّه إنَّما يعيب بفضل ما فيه من العيب. وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب. وقبيحٌ أن تنهى عن مرشد أو تغري بمشفق. وما أردنا بما قلنا إلّا هدايتكم وتقويمكم، وإلّا إصلاح فسادكم و إبقاء النعمة عليكم. ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيلَ حُسن النية فيما بيننا وبينكم. ثم قد تعلمون أنَّا ما أوصيناكم إلَّا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهرنا به في الآفاق دونكم ،..... عِبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميراً كما أجدتِه فطيراً، ليكونَ أطيبَ لطعمه وأزيدَ في ريعِه. وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ورحمه ـ لأهله: املكوا العجين فإنّه أريع الطحينين ."[1]

في هذه الرسالة نجد سهل بن هارون يوصي بالبخل وهو يردّ على مَن ذمّوا مذهبه، ولا يكتفي بذلك بل يحتجّ لرأيه تارة بحديث للرسول الكريم (صلّى الله عليه وسلّم) و وتارة بقولٍ لأحد أصحابه رضوان الله عليهم، وهذا يدل من جهة أخرى على ثقافة البخيل وحِنكته، وإصراره على مذهبه و دليل على نموذج البخيل الذي لا يأبه بهذه الصفة بل على العكس يراها رأس ماله في الدنيا والآخرة.

ومن الشخصيات التي عرّفنا إليها الجاحظ ، شخصية البخيل الذي يتعاطى التعليم كأبي عيينة، يقول الجاحظ:" حدّثني جعفرُ ابنُ أخت واصل، قال: قلت لأبي عُيينة: قد أحسن الذي سأل امرأته اللّحمَ، فقالت أكلَه السنَّور، فوزن السنور، ثم قال:" هذا اللحم فأين السنور؟" قال:" كأنَّك تعرّض بي" قال، قلت:" إنّك والله أهل لذلك. شيخٌ قد قارب المائة،

[1] البخلاء : الجاحظ، ص 9 - 10 - 14 - 15.

وغلته فاضلة، وعياله قليل، ويُعطى الأموال على مذاكرة العلم، والعلمُ لذّته وصناعته، ثم يرقى إلى جوْف منزله. وأنت رجلٌ في البستان، ورجلٌ في أصحاب الفسيل، ورجل في السُّوق، ورجلٌ في الكلاء. تطلب من هذا وقر جصّ، ومن هذا وقر آجُرّ، ومن هذا قطعة ساج، ومن هذا هكذا، ما هذا الحِرصُ؟ وما هذا الكدّ، وما هذا الشُّغل؟ لو كنتَ شاباً بعيد الأمل كيفَ كنت تكون؟ ولو كنت كثيرَ العيالِ كيف كنتَ تكون؟ وقد رأينك فيما حدث تلبسُ الأطمار وتمشي حافياً نصفَ النهار وقال:تمعددوا واخشوشنوا، واقطعوا الركب، واركبوا الخيل نزواً" ... وقال أكثم بن صَيْفي: " ما أحبّ أني مكفيٌّ كل أمر الدنيا" قالوا: " وإن أسمنت وألبنت؟" قال: " نعم أكره عادة العجز". أفتراني أدعُ وصايا الأنبياء وقول الخلفاء وتأديب العرب ، وآخذ بقولك."[1]

استطاع الجاحظ من خلال تلك الشخصيات التي صوّرها لنا في كتاب (البخلاء) أن يُطلعنا على أحوال فئة من الناس اتخذت لنفسها منهجاً معيّناً في التفكير والتصرف والسلوك، وباتت مقتنعة به اقتناعاً كاملاً، تبددت في ظلّه كل الأشياء الأخرى، فإذا البخل واقعهم ومفهومهم وحياتهم التي يسيرون عليها ." والجدير بالذكر أن الألفاظ والتعابير والمصطلحات التي أدارها الجاحظ على ألسنة هذه الشخصيات والنماذج هي التي عرّفتنا إلى مهنهم وثقافتهم ، ذلك أن الجاحظ نادراً ما كان يشير إلى مهنة الشخص أو ثقافته."[2]

2 ـ الحوار :

الحوار : " هو حديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر."[3]

وللحوار أهمية عامة تتمثل في كونه وسيلة لعرض الفكرة في غير تعصب ومحاولة الإقناع بالتي هي أحسن وفي ذلك يقول احد الباحثين: " يكتسب الحوار أهميته من كونه وسيلة للتآلف والتعاون، وبديلاً عن سوء الفهم والتقوقع والتعسف والفرقة والصراع، وبذلك

[1] البخلاء : الجاحظ ، ص 145 – 146 .
[2] مع بخلاء الجاحظ دراسة تحليلية مقارنة مع منتخبات : فاروق سعد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1980 ، ص61 .
[3] يُنظر: الحوار بين الجماعات الإسلامية : محمد السيد أحمد المسير ، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط1، 1997م ، ص13 .

يصبح الحوار ضرورة طالما تفاعل الناس وتدافعوا، واختلفت انتماءاتهم ومصالحهم، وأفكارهم ومشاعرهم تجاه الاشياء والأشخاص من حولهم."[1]

نذكر على سبيل المثال ما قاله الجاحظ في قصة محمّد بن أبي المؤمّل :

قلت له: إنّي قد رأيت أكلهم في منازلهم وعندَ إخوانهم، وفي حالاتٍ كثيرة و مواضعَ مختلفة، ورأيتُ ألَهم عندَك، فرأيتُ شيئاً متفاوتاً وأمراً متفاقماً . فاحسب أنَّ التَّجني عليهم غالب، وأن الضعفَ لهم شامل، وأن سوءَ الظّن يُسرع إليهم خاصّة، لِمَ لا تداوي هذا الأمرَ بما لا مؤنة فيه وبالشيء الذي لا قَدْر له، أو تدعَ دُعاءهم والإرسالَ إليهم والحرصَ على إجابتهم؟ والقومُ ليسَ يُلْقُونَ أنفسهم عليك، وإنما يجيئونك بالاستحباب منك. فإنْ أحْبَبْتَ أن تمتحن ما أقول، فدع مُواترة الرسل والكتب، والتّغضّب عليهم إذا أبطؤوا، ثم انظر.

قال: فإن الخبز إذا كثر على الخِوان فالفاضل مما يأكلون لا يَسلم من التّلطيخ والتّغمير. و الجَرذقة الغَمِرة والرقاقة المتلطّخة، لا أقدرُ أن أنظرَ إليها، وأستحي أيضاً من إعادتها . فيذهب ذلك الفضلُ باطلاً ، والله لا يحبُّ الباطل.

قلتُ فإنّ ناساً يأمرون بمَسحه، ويجعلون الثريدَةَ منه. فلو أخذت بزيِّهم وسلَكت سبيلهم، أتى ذلك على ما تريد ونريد.

قال : أفلستُ أعلم كيفَ الثريدة، ومن أيِّ شيء هي؟ وكيف أمنعُ نفسي التوهّم وأحولُ بينها وبين التذكّر؟ ولعل القوم أن يعرفوا ذلك على طول الأيام، فيكون هذا قبيحاً .

قلت: فتأمر به للعيال. فيقوم الحُوَّاري المتلطِّخ مقامَ الخُشكار النظيف . وعلى أنّ المسحَ والدَّلك يأتي على ما تعلَّق به من الدسم.

قال: عيالي ـ يرحمك الله ـ عيالان: واحدٌ أُعظمهُ عن هذا وأرفعه عنه، وآخر لم يبلغ عندي أن يُترَف بالحوَّاري.

قلت: فاجعلْ إذاً جميع خبزك الخُشكار: فإن فضل ما بينه وبين الحوّاري في الحُسن والطيب، لا يقوم بفَضْل ما بين الحمد والذم.

[1] الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه : منى ابراهيم اللبودي ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2003م ،ص 20 .

قال: فها هنا رأيٌ هو أعدل الأمور وأقصدُها، وهو أنّا نحضر هذه الزيادة من الخبز على طبَق، ويكونُ قريباً حيث تناله اليد ، فلا يحتاج أحدٌ مع قربه منه إلى أن يدعوَ به، ويكون قربه منه من يدِه كثرَةً على مائدته. "[1]

نلاحظ أنَّ الجاحظ اتّخذ من الحوار وسيلة لإثبات فكرته محاولاً إقناع البخيل أن يزيد في خُبزه ، ويسوق إليه الحُجج والبراهين على أهميّة زيادة الخُبز على المائدة لكنّه في نهاية الحوار يثبت أنَّ ترك الطعام البتَّة أهون عنده من الخصومة ، فهو ينتصر لرأيه ،

والجاحظ الخبير بخفايا النفس البشرية يأتي بالحجة التي تثير البخيل فتجعله يُخرِج جميع ما عنده، وكل ذلك ليصل بنا إلى إظهار الشح والحرص الشديد للبخيل بصورة مضحكة ساخراً منه بأسلوبٍ فنيٍّ رائع ، و" قارئ الجاحظ يخرج بانطباع قوي ، هو: لو عرف الجاحظ الأدب التمثيلي لأمدّنا بالعديد من الروايات التمثيلية، فأسلوب الجاحظ ، حواري قائم على المناظرة مستتبع للحركات الجسدية والمشاعر النفسية."[2]

3 ـ براعة الوصف :

" لقد كان الجاحظ في كتابه (البخلاء) دقيقاً في تصويره، بارعاً في وصفه، فأسلوب الجاحظ في الوصف هو ـ في حقيقة الأمر ـ وجه من وجوه "الواقعية" الغالبة عليه. وقد أعانه على أن يبلغ بأسلوبه هذا ذلك المبلغ من دقة التصوير و روعته قوة إدراكه لقيم الكلمات، وإحساسه الملهم بالظلال التي تنتشر عنها، وهدايته البالغة في كيفية تأليفها وتنسيقها ومزج ما بينها، حتى تؤدي الأغراض التي يعنيها، وتبرز الصور التي يتصورها، بالرغم من أنَّ الألفاظ بطبيعتها محدودة القوى."[3]

والأمثلة على ذلك كثيرة في كتابه، نذكر على سبيل المثال قصة تمام بن جعفر، يقول الجاحظ:

" كان تمّام بن جعفر بخيلاً على الطعام، مفرِطَ البُخل. وكان يُقبِلُ على كلِّ من أكل خبزَه بكلِّ علَّة، ويُطالبه بكلِّ طائلة. وحتى ربَّما استخرج عليه أنه كان حلال الدم. وكان إن قال له نديم:" ما في الأرض أحدُ أمشى منِّي، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحُضر منِّي ."[4]

---

[1] البخلاء : الجاحظ ، ص 94 - 95 - 96 - 97 .
[2] السخرية في أدب الجاحظ، : عبدالحليم محمد حسين ، ص240 .
[3] البخلاء : الجاحظ ، مقدمة طه الحاجريّ ، ص49 - 50 .
[4] البخلاء : الجاحظ ، ص116 – 117 .

نجد أنَّ الجاحظ أراد أنْ يبيّن لنا فصاحة البخيل ، فالبخل مذهبٌ وله قوانينه وله سلوكيّاته التي يتّبعها البخيل ولا يحيد عنها، فالجاحظ في دقّة وصفه ينقل لنا القصة أو النّادرة و كأنَّنا نعيش معه ونسمع بأنفسنا ولا نقرأ هذه الكلمات فحسب، وهذا يدل على قدرته في وصف شخصية البخيل وصفاً يجعلها ماثلة أمام القارئ ، و " ليست ملَكة الملاحظة هي الامر الأهم في الخطابات الهزليّة التي تتخذ من البخل موضوعاً لها بقّدر ما هي طريقة عرض الأشخاص وبعثهم أحياء"[1] فقد أتقن الجاحظ إثبات الوصف الذي يكون فيه حبك السياق مضحكاً .

لقد اعتنى الجاحظ بالتفصيلات التي تجلي الصورة وتبرزها للقارئ واضحة تتجلّى فيها قوة التأثير ، و بلاغة التعبير ، إذ يقول الجاحظ على لسان الحارثيّ وهو أحد الشخصيات التي تناولها في كتابه يصِف عليّاً الأسواري وهو يأكل :

" وكانَ إذا أكلَ ذهب عقله ، وجَحَظت عينُه، وسكِر وسدِر وانبهر، وتربّد وجهه، وعَصِب ولم يسمع، ولم يبصر، فلمّا رأيتُ ما يعتريه ويعتري الطعام منه، صرتُ لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوْزَ والباقلّى . ولم يفجأني قطّ وأنا آكلُ تمراً إلّا استفّه سفّاً ، وحساه حسواً، وزدا به زدواً. والله يا إخوتي لو رأيتُ رجُلاً يفسد طين الردغَة، ويضيع ماء البحر، لصرفتُ عنه وجهي . فإذا كان أصحاب النظر وأهل الديانة والفلسفة، هذه سيرتهم، وهكذا دأبهم فما ظنكم بمن لا يُعدُّ ما يعدّون. ولا يبلغُ من الأدب حيثُ يبلغون. "[2]

نلاحظ أنّ المثال السابق كان معبّراً، إذ عُنِيَ الجاحظ باختيار الكلمة التي تستوفي التعبير عن المعنى المراد فلا نجد في كلامه تكلّفاً ولا تصنّعاً ولا مبالغة، فقد استطاع أنْ يرسم لنا صورة علي الاسواري وهو يأكل دون أن يغادر من مقوماتها شيئاً .

والأمثلة كثيرة على دقة وصف الجاحظ وبراعته في نقل النادرة ، نذكر على سبيل المثال قوله :

" ولقد رأيت رجلاً ضخماً فخم اللفظ والمعاني، تربيةً في ظل ملك، مع علم جمٍّ ولسان عَضْب، ومعرفة بالغامض من العيوب والدقيق من المحاسن، مع شِدَّة تسرُّع إلى أعراض

[1] الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : جميل جبر ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، د.ط .ت ، ص38 .

[2] البخلاء : الجاحظ ، ص79 - 80 .

الناس وضيق صدر بما يَعرف من عُيوبهم، وإن ثريدته لبلقاء، إلَّا أن بياضها ناصع، ولونَها الآخر أصهب. فرأيت ذلك مرَّة أو مرَّتين . "[1]

نلاحظ من المثال السابق أن الجاحظ يمتلك القدرة على التصوير الساخر الذي يتغلغل في أعماق النفس، ويستبطن كل ما فيها، ويصور جميع حركاتها وخلجاتها، بأسلوب فنيّ تتسّع فيه النظرة التّهكميّة الساخرة من البخيل، وتنبعث من روح الجاحظ وفنّه.

4 ـ الاستعارة :

الاستعارة : " ركن أساس من أركان المجاز، ويعبّر عنها بكونها استعمال اللفظة لغير ما وضعت له في أصل اللغة مع قرينة مانعة من إيراد المعنى ."[2]

نذكر على سبيل المثال ما رواه الجاحظ عن الدراديشي في إسرافه في البخل وحرصه الشديد إلى الحدّ الذي يُبغض معه كل سائل ، وحين سُئل عن سبب ذلك البغض أجاب : "كلُّ هؤلاء لو قَدروا على داري هدموها، وعلى حياتي لَنَزعوها. أنا لو طاوعتهم فأعطيتُهم كلما سألوني ، كنتُ قد صرْتُ مثلهم منذ زمان. فكيف تظنُّ بغضي يكون لمن أرادني على هذا "[3] فصورة الاستعارة واضحة في هذا النص وهي من نوع المكنيّة ، كما في قوله: (على حياتي لنزعوها) حيث شبّه حياته بالثوب الذي يلبس، ثم حذف المشبه به ورمز له بقرينة تدل عليه وهي (النزع) بمعنى الخلع .

5 ـ الطباق :

" الطباق : هو الجمع بين المعنى وضده في الكلام ، ويكون في صيغتين:

طباق إيجاب : قد تكون الكلمتان مختلفتين في اللفظ والمعنى . وطباق السلب: وفيه يكون الجمع بين المعنى وضده عن طريق وجود اللفظ ومنفيه في الكلام . وقد أسهب البلاغيون في تحديد الطباق وبيان أنواعه وأقسامه ."[4]

نقل لنا الجاحظ حكاية عن بعض صور بخل أهل خراسان كاستخدام بعضهم لوسائل تحدّ من ضياع الزيت المستعمل في إيقاد المصباح، وإبدال العود المستعمل بمسلة من معدن ،

---

[1] المصدر نفسه ، ص 57 .

[2] يُنظر: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو الهلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ت 395هـ ، تح: مفيد قمحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1989م ، ص 205– ص238 .

[3] البخلاء ، الجاحظ ، ص 133 .

[4] يُنظر: الصناعتين : العسكري ، ص352 ـ ص399 .

وهذا ما ذهب إليه بخيل آخر معللاً ذلك بقوله: " أما تعلم أنَّ الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أوليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى ، وهو عند سراجك اليوم أعطش؟ قد كنت جاهلاً مثلك اربُط ـ عافاك الله ـ بدلَ العود إبرة أو مسلة صغيرة. وعلى أنّ العود والخِلال والقصبة ربّما تعلّقت بها الشعرةُ من قُطن الفتيلة إذا سويْناها بها فيشخص لها. وربّما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج . والحديد أملس ، وهو مع ذلك غير نشّاف . قال خاقانُ: ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ، وفضلَ أهل مرو على سائر أهل خراسان. "[1]

فالطباق في الكلمات (أعطش . أروى) وهو طباق إيجاب .

و في مثال آخر يقول الجاحظ: " قال ابن حسّان: كانَ عندنا رجلٌ مُقِل، وكانَ له أخٌ مُكثر، وكان مُفرط البخل شديد النفج. "[2]

فالطباق في المثال السابق في قوله: (مُقل . مُكثِر) وهو طباق إيجاب ، وفي قوله: (فقير . غنيّ) ، وهو طباق إيجاب أيضاً .

بعد تحليلنا لأدبيّة الخطاب الهَزلي في كتاب (البخلاء) يمكننا القول : إنَّ الجاحظ استطاع أنْ يوصِلَ القارئ إلى المعنى المراد من غير تكلّف ولا إغراق، فنلاحظ خلوّ الكتاب من الزخرف الصّناعي المُتكلَّف ، وتركه يأتي عفو الخاطر ولعلّ هذا ما أراده الدكتور (شوقي ضيف) في قوله:

" فالكتابة عنده ليست زخرفاً خالصاً يراد به إلى الوشي والحلي، وما يندمج في ذلك من صور وتشبيهات واستعارات، بل هي معان تؤدى في دقة، تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة. وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير، فإنه إنما عزف عن الأخيلة ، لما تضع أمام القارئ من مبالغات "[3]

[1] البخلاء : الجاحظ ، ص 19 -20 .
[2] المصدر السابق،: ص 195 .
[3] الفن ومذاهبه في النثر العربي : شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط5 ، 1960 م، ص 164 .

الخاتمة :

نستطيع من خلال الدراسة التي قدّمناها أنْ نستنتج أنَّ الخطاب الهَزليّ كان منهج الجاحظ في كتابه (البخلاء) ، ولا نزعم أنَّ هذه الدراسة هي الأخيرة أو الوافية لبيان أهمية الخطاب الهَزلي منهجاً في التأليف لأنّها اقتصرت على مؤلَّف واحدٍ من مؤلفات الجاحظ ، لكنْ يكفينا أن نسلّط الضوء على اتخاذ الخطاب الهَزليّ ومزج الهَزل بالجدّ بوصفه منهجاً أسّس له الجاحظ ليس في كتاب (البخلاء) فحسب ، إنّما نجده اتّبع هذا المنهج في كثير من مؤلفاته ولا سيّما ، رسالة التربيع والتدوير التي قالها في أحمد بن عبد الوهاب ، والتي أبرزت براعته الفنيّة والتصويرية أيضاً .

كما أنّنا من خلال هذه الدراسة نلتمس قدرة الجاحظ على بعث الروح في الصور والمشاهد والافكار والموضوعات ، و الحسّ الفُكاهي و روح الدعابة والقدرة على تجسيم العيوب نجدها أيضاً في كتابه ، فالبخل عيبٌ وصفة ليست من طِباع العرب الذين عُرِفوا بكرمهم على مرِّ العصور .

ومن خلال منهج الجاحظ في كتاب (البخلاء) نستشفّ أنّه يهتم بالقارئ بالدرجة الأولى ؛ فهو يريد إيصال رسالة معيّنة ، لذلك كان على وعي تام بأركان تلك الرسالة ، وأنّ المتلقي ليس بمُعْزِلٍ عنها وهذا ما أراده من مزج الجدِّ بالهَزْل .

النتائج :

ـ استطاع الجاحظ معايشة أحداث عصره معايشة كاملة ، فراح يكتب كل شيء حتى لم يترك صغيرة ولا كبيرة في مجتمعه إلّا وتحدث عنها ونقلها إلينا فهو شاهد على العصر و مرآة للسنوات التي عاشها ، وقدّمها لنا في إطار فُكاهي لم تكن الغاية منه الضحك والمُزاح والإمتاع فقط ، بل أراد أن ينتقد المجتمع بمختلف طبقاته التي كانت سائدة آنذاك.

ـ كانت للجاحظ رؤية خاصة للأحداث والصور والمشاهد والنوادر التي تدور أمامه أو سمع بها ، الجليل منها والحقير ، العظيم والتافه ، الواضح والغامض ، دون إهمال لجانب من جوانبها فقدّمها للقارئ كل ذلك ضمن إطار يكسر رتابة الخبر أو القصة أو النادرة ، بالهَزل تارة والسخرية والاستهزاء تارة أخرى .

ـ الاختيار الصحيح لنوعيّة اللغة ومستوى الأسلوب وما يتصل بها من مفردات و ألفاظ توصِل لمعرفة مستويات التعبير الأدبي ومستويات التعبير الموضوعي أو الاجتماعي أو العلمي .

ـ لم يسرف الجاحظ في تقديم المحسنات البديعية أو اللفظية ولم يحاول أن يجهِد نفسه من ورائها ، فجاء الكتاب على القَدْر السهل والبسيط الواضح غير المبالغ فيه ، أو المعقّد من أساليب الجمال كما ابتعد عن الوشي ، وقدّم أفكاره بطريقة محبّبة للقارئ مراعياً جميع الأحوال التي قد يكون عليها .

ـ اعتمد الجاحظ الأسلوب الذي يوصِل القارئ إلى المعنى المراد بأسهل الطرق وذلك من خلال مزجه للهَزل بالجد واعتماده الخطاب الهَزليّ في جميع نوادره .

ـ حسن اختيار اللفظ المعبّر عن الموضوع ، ووضع الكلمة في المكان المناسب والقدرة على التمييز بين المترادفات والبعد عن الكلمات غير المحددة المعاني .

ـ معرفة الجاحظ لطرق التحايل عند بعض البخلاء وقيادة الحديث و توجيهه إلى صالحهم ، وقدرته على إخراج ما عندهم ؛ ليوضّح لنا كيف ساد البخل في عصره وكيف كان طبعاً من طباع البخلاء الذين تحدث عنهم في كتابه متخذاً من الواقعية أساساً له ، فاتسمت الأحداث جميعها بالواقعية والصدق ، ولذلك كان كتابه مرآة لعصره ، فهو شاهد ذلك العصر .

توصيات البحث :

لعلّ هذا البحث يفتح المجال أمام القارئ الباحث أن يتوسّع أكثر في مجال التأليف عند العرب القدماء ، فكتاب (البخلاء) للجاحظ يعدّ نموذجاً واحداً ، ونحن نسعى للتوسع في مجال الاهتمام بمناهج التأليف من جهة ، و أدبيّة النصوص من جهة أخرى ، و نوصي الباحثين بدراسة هذه الموضوعات لأنّها جديرة بالبحث والدراسة ، فلا تزال كتب القدماء منبعاً ننهل منه الكثير من العلم والأدب .

إنَّ هذه الدراسة لو أُخِذت من باب المقارنة بين المؤلفين في اتخاذ الخطاب الهَزليّ منهجاً في التأليف فإن ذلك سوف يغني البحث ويوسّعه أكثر ، كما أنّه يغني المكتبة العربيّة ويضيف إلى نِتاج الباحثين ما يستفيد منه القارئ في قادمات الأيام .

المصادر والمراجع :

1- أدب الفكاهة الأندلسي دراسة نقدية تطبيقية : حسين خريوش ، منشورات جامعة اليرموك ، د.ط ، 1982م .

2- أدب الفكاهة عند الجاحظ : أحمد عبد الغفار عبيد ، جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية بالمنصورة ، ط1 ، 1982م .

3- الأدب المفرد : الإمام محمد بن اسماعيل البخاري ، خرّج أحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، وضع فهارسه : رمزي سعد الدين دمشقية ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت . لبنان ، ط3 ، 1989م .

4- أشكال التعبير الأدبي الشعبي : نبيلة ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1974م .

5- البخلاء : الجاحظ ، تح: طه الحاجريّ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط6 ، 1905م .

6- التعريفات : علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مكتبة لبنان ، بيروت ، د.ط ، 1985م .

7- الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : جميل جبر ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، د.ط ، د.ت .

8- الحوار بين الجماعات الإسلامية : محمد السيد أحمد المسير ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط1 ، 1997م .

9- الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه : منى ابراهيم اللبودي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1 ، 2003م .

10- الحيوان : عمرو بن بحر الجاحظ ، تح: عبد السلام هارون ، المَجمع العلمي العربي ، ط3 ، 1969م ، ج3 .

11- دراسات فنية في الادب العربي : عبد الكريم اليافي ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت . لبنان ، ط1 ، 1996م .

12- السخرية في أدب الجاحظ : عبد الحليم محمد حسين ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1988م .

13- السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري : نعمان محمد أمين طه ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ، ط1 ، 1978م .

14- سيكولوجية الفكاهة والضحك : زكريا ابراهيم ، دار مصر للطباعة ، مصر ، د.ط ، د.ت .

15- الفكاهة في مصر : شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط3 ، 1943م .

16- الفكاهة والضحك رؤية جديدة : شاكر عبد الحميد ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، د.ط ، 2003م

17- الفكاهة والمُزاح : الأخباري الزبير بن بكّار ، تح: حسين حيدر الهاشمي ، د.ط ، 2017م ، ج1 .

18- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ : عزّت السيد أحمد ، اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، د.ط ، 2005م .

19- الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط5 ، 1960م ..

20- المخصص : ابن سيده الأندلسي (398 . 458هـ) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، ط1 ، 1417هـ ، السفر الثالث عشر .

21- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 1986م .

22- مع بخلاء الجاحظ دراسة تحليلية مقارنة مع منتخبات : فاروق سعد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1980م .

23- المعجم الأدبي : جبّور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1979م .

24- معجم مقاييس اللغة : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تح: عبد السلام هارون ، مكتب الإعلام الأسلامي ، د.ط ، 1404هـ ، ج3 .

25- معجم المصطلحات الأدبية : ابراهيم فتحي ، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، د.ط ، 1986م .

26- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1985م

27- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : مجدي وهبة . كامل المهندس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط2 ، 1984م .

28- لسان العرب : ابن منظور، دار صادر، بيروت .